سيميائية العنوان في "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي

بقلم الدكتور

خالد سريان ساري الحربي

أستاذ النقد الأدبي المساعد بجامعة حائل

المملكة العربيّة السّعوديّة

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الأول (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

سيميائية العنوان في "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي

خالد سريان ساري الحربي

أستاذ النقد الأدبي المساعد بجامعة حائل - المملكة العربيّة السّعوديّة

البريد الإلكتروني : dr.ksst195@gmail.com

الملخص

تمثل دراسة العنوان بابا مهما في العملية الإبداعية؛ لكونه إشارة لمسارب المكونات الإبداعية في أعماق النص الأدبي في صورة تعبيرية موجزة، وقد امتاز الأدب الأندلسي شعر ونثرا بالبراعة في اختيار وانتقاء العناوين سواء أكانت مدخلا للعمل الإبداعي كاملا أم في فصوله الداخلية، وستقف هذه الدراسة عند عنوان كتاب (طوق الحمامة في الألفة والأُلَّاف) لابن حزم الأندلسي الذي يعد ظاهرة أدبية فريدة حيث اختار موضوعا شائكًا، فاختار العنوان الرئيس ليصبح دليلا على كتابه، فضلا عن العناوين الفرعية الدالة على محتوى النص والفاعلة بدورها مع العنوان الرئيس في تشابك والتحام وامتزاج تام يعكس دقة الاختيار وبراعته، ويتطلب ذلك حفر وعمق أصيل لإدراك العلاقة بين العنوان والمتن من زاوية سيمائية.

وستأتي الدراسة في مبحثين: الأول: يقوم بدراسة علاقة العنوان بالمتن، ويتناول المبحث الثاني: علاقة العناوين الداخلية بالمتن من جهة وبالعنوان الرئيس من جهة أخرى، باستخدام المنهج السيميائي بقصد تلمس الإشارات الدالة والفاعلة بين العنوان والمتن.

الكلمات المفتاحية : العنوان ، طوق الحمامة ، النص الموازي ، الفلسفة.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Semiotics of the title in the "Collar of the Dove" by Ibn Hazm al-Andalusi

Khaled Saryan Al-Harbi
Assistant Professor of Literary Criticism at the University of Hail, Saudi Arabia.
Email: dr.ksst195@gmail.com

Abstract

The study of the title represents an important door in the creative process; because it is a reference to the paths of creative components in the depths of the literary text in a concise expressive form, and Andalusian literature has been characterized by poetry and prose with ingenuity in the selection and selection of titles, whether they are an introduction to the entire creative work or in its internal chapters, and this study will stand at the title of the book (The Collar of the Dove in Familiarity and Thousands) by Ibn Hazm Al-Andalusi, which is a unique literary phenomenon where he chose a thorny topic, so he chose the main title to become a guide to his book, as well as the titles The sub-function of the content of the text and the actor in turn with the main title in the entanglement, fusion and perfect blending reflects the accuracy and ingenuity of the choice, and this requires an authentic etching and depth to perceive the relationship between the title and the corpus from a semiotic angle.

The study will come in two sections: the first: it studies the relationship of the title to the body, and the second section: the relationship of internal addresses to the corpus on the one hand and the main title on the other, using the semiotic approach with the intention of touching the indicative and effective signals between the title and the body.

Keywords: title , dove collar , parallel text , philosophy .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اهتمت الدراسات الحديثة بما يحيط بالنص الأدبي من عناصر مُهمَّة وفاعلة؛ ويُعدُّ العنوان أهم هذه العناصر المحيطة بالنص الأدبي وأكثرها دلالة، فهو البوابة الأولى التي نلج من خلالها لأعماق النص الأدبي، وهو أيقونة نصيَّة وسيميائية ترتبط بشبكة من العلاقات الضاربة في أعماق النَّصّ والمُتفاعلة مع كافة عناصره الأخرى مُحيطة كانت أم فرعية.

وللوقوف على شبكة العلاقات وتلمّس فاعليتها فإنَّ هذه الدراسة ستستخدم المنهج السيميائي لكونه الأنسب لدراسة هذه الأيقونات الإشارية، وفك شفراتها، وكشف أسرارها، وشبكة علاقاتها.

والمُتتبِّع للعنوان وللنص الموازي عامة يدرك أنه ذا طبيعة إشارية، وذا خصوصية فريدة ماثلةٌ في تعالق بُعديه الجمالي والتجاري وبسبب ذلك أصبح يعمل بطريقة مختلفة ومغايرة لكافة العناصر الأدبية الأخرى؛ فتبعاً لهذا التعالق يصعب الجزم والقطع بمرجعية العنوان وقصديته التي تُعدّ المسؤول الأوَّل عن مظهره وشكله النهائي.(١)

وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية الحديث عن العلاقة التعاقدية التي تبعا لها ظهر العنوان بمظهره النهائي، ومن هنا فالمسؤولية تعود – من حيث الشكل– للمحقق والناشر معاً؛ فالمحقق يُكمِل عمل المُؤلف الأصلي حيث يتبنى العمل بعد إيمانه بصدق ما يقوم بقراءته وإضافته للنص بتهميش أو توضيح أو

---

(١) جيرار جينيت، عتبات، ترجمة: عبدالحق بلعابد، ط١، (لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م)، ٤٩.

فهرسة أو تقديم أو رسم أبعاد أو ملامح رئيسة أو قبول أو رفض ما يقترحه الناشر من حيث صُورة الغلاف والخط واللون وحجم الكتاب والأيقونات المختلفة وما شابه ذلك، فهو الحارس الحقيقي والنائب عن المؤلف الأصلي.

المبحث الأول: العنوان الرئيس:

يعد العنوان محفزا رئيسا للقارئ يعمل على استدراجه للولوج إلى عالم النص الأدبي، بداية من البنية اللغوية وما يحيط بها من رسوم وفضاءات، ويتكرر الأمر نفسه مع غلاف العمل الأدبي الذي يعد جاذبا رئيسا بتشكيله الجمالي والسيميائي جنبا إلى جنب مع العنوان الرئيس.

كما أن المحتويات الأخرى لصفحة الغلاف تتعانق معا في بناء شبكة من العلاقات المحفزة للقارئ للحفر عن مضمونها ومدى علاقتها بالنص، ويأتي في مقدمة هذه العناصر المحيطة والفاعلة اسم المؤلف وأيقونة الناشر وكعب الغلاف وغيرها.

يعد كتاب ابن حزم[١] "طوق الحمامة في الألفة والألاف" عملا فريدا غير خاضع لتيار أو مذهب أو فكر معيَّن، فلقد كتب ابن حزم ما اقتنع به وما يعكس صورة الحب التي عايشها بنفسه، وتعكس الصورة السائدة للحب في المجتمع الأندلسي والقرطبي خاصة، وقد اعتمد فيها على الملاحظة والمشاهدة

---

(١) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الاسلام، ولد بقرطبة وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظا يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيدا عن المصانعة. وانتقد كثيرا من العلماء والفقهاء، فأبغضوه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، فأقصته الملوك وطاردته، فرحل الى بادية ليلة (من بلاد الأندلس) فتوفي فيها. رووا عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخطه أبيه من تآليفه نحو ٤٠٠ مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وكان يقال: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. أشهر مصنفاته "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وله "المحلى"، و"جمهرة الأنساب" و"الناسخ والمنسوخ" و"حجة الوداع"، و"ديوان شعر". ينظر: خير الدين الزركلي، كتاب الأعلام للزركلي، نسخة المكتبة الشاملة، حرف العين، ٢٥٤.

والتحليل النفسي والفلسفي العميق فاستسقى جوانب الصورة وصاغ أبعادها مُعبِّرا عن العاطفة الصادقة المُشتعلة في حالتي الريّ والظمأ، والقرب والبعد، والآمال والطموح والنوال.

وللعنوان أهمية كبرى في الخطاب الأدبي فهو البوابة الأولى التي تقابل القارئ وأكثرها أهمية، ولذا فهو محفوف باحتفالية كبيرة ودور سيميائي مهم يجعله يتجاوز المستوى اللغوي إلى البصري فضلا عن أنَّه بؤرة شعرية مكثَّفة وغيرها من عناصر الإغراء التي تؤثر في الأبعاد الجمالية والاشهارية للعنوان،(١) فالعنوان "شَرَكٌ يُنصب لاقتناص المتلقي"(٢) حتى يصبح لا مناص له سوى اقتحام النص وسبر أغواره.

وعنوان كتاب ابن حزم "طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف" يعكس تلك الأهمية؛ فالطَّوقُ لُغة: حَلْيٌ يُجعَلُ في العُنُقِ. وكُلُّ شيءٍ استَدارَ فهو طوقٌ كطَوقِ الرَّحى الذي يُديرُ القطبَ ونحو ذلك. وقد طوَّقتُهُ فتطوَّق أي أَلبستهُ الطَّوق فلبسه، وقيل: الطَّوقُ ما استدارَ بالشيء، والجمعُ أَطواقٌ. والمطوقةُ: الحمامةُ التي في عنقها طوقٌ. والمطوَّقُ من الحمامِ: ما كانَ له طوقٌ. وطوَّقهُ بالسيفِ وغيرهِ وطوَّقهُ إيَّاه: جعله له طوقًا. والنَّخلُ مُطوَّقةٌ بثمرها؛ أي صارت أعذَاقُهَا كالأطواق في الأعناق، وطائقُ كُلِّ شيءٍ، مِثْلُ طَوقهِ، وفي

(١) محمد التونسي جكيب، إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته عتبة العنوان أنموذجا، فلسطين، جامعة الأقصى، المؤتمر العلمي الدولي الأول بعنوان النص بين التحليل والتأويل والتلقي، ٥٠٨.

(٢) حافظ علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٩م، ٥٨.

التهذيب: طائقُ كُلِّ شيءٍ ما استدارَ به من حبلٍ أو أكمةٍ، والجمعُ الأطواقُ.(١)

وطَوْق الحمامة: ما يحيط رقبتها من ريش يخالف سائر لونها. وطوق الحمام: يُضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم. فالطوق وسيلة وأداة لحمل رسائل العشاق وأشواق المحبين وزفرات المشتاقين وولـه الهائمين، ويمكن القول أنَّ سبب اختيار ابن حزم "طوق الحمامة" عنوانا لكتابه جاء "كنايةً عن الجمال الذي يعتبر مسارًا للحب، مستلهمًا من قصة منح النبي نوح الطوق للحمامة التي أرشدته بعد الطوفان، بالإضافة إلى أن الحمامة رمز للحب عند فينوس آلهة الحب في الأساطير اليونانية".(٢)

ولعل ابن حزم قصد ما هو أبعد من ذلك فالدارس لطبيعةِ المجتمع الأندلسي – والقرطبي خاصةً– وما نقل عنه من أدب وشعر يلحظ أنَّ الطّوق كان من أهم مغذيات العشق وإدامة الحب بين المتحابين فكانت المرأة تُراسل من تحب ومع المُراسلة يلزم الرسول الذي يقوم بدور الوساطة بين العاشق ومعشوقته، وتلزمه مواصفات خاصَّة به من فطنةٍ وذكاءٍ ونقاءٍ وتقديرٍ لأحوال المعشُوق ومُلاحظة الحركات والسكنات التي تعتريه عند مثول الرسالة أو الجواب بين يديه، وبذلك نجد أنَّ الطوق كان أداة تواصل وجسر صلةٍ قوي ودائم بين العُشاق والمُحبين، فمن الصور المُشاهدة والمُلاحظة – آنذاك– أنَّ الطوق كان يُعلَّقُ فيه خصلة من الشعر المُعطَّر يُهديها المعشُوق إلى العاشق

(١) ابن منظور، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ١٩٩٠م)، مادة (طَوَقَ).
(٢) طوق الحمامة.. رحلة الحب الفلسفية، مقال أدبي، موقع إلكتروني.

لتبقى معه تذكار في أويقاتٍ لا يجتمعان فيها؛ أملاً في اللقاء وتسلياً به وقت البعد.[١]

ففي "طوق الحمامة" نجد أنَّ ابن حزم يصف قصص المُحبين والعُشاق بأسلوب فلسفي رائع من خلال المُلاحظة والتجرُبة مُجاوباً بذلك روح عصره ومُسجلاً ما كان يروج بين المحبين والعشاق في المجتمع الأندلسي، فجاوب عصره وتأثر به وأثر فيه فأثمر وأينع.

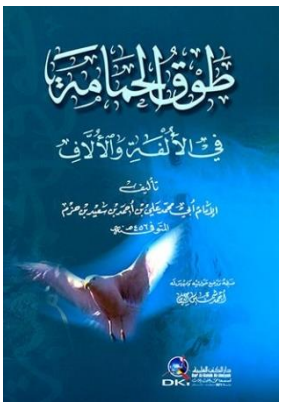

ويأتي العنوان في "طوق الحمامة بوصفها أهم العناصر المحيطة، وعند تأمل العنوان هنا نجد أنه ظهر في أعلى صفحة الغلاف وتحته اسم المؤلف مباشرة، وأنَّه لم يظهر على مستوى واحد بل جاء في جزأين؛ جاء الجزء الأوَّل منه (طوق الحمامة) منفرداً في سطر لوحده ومنفرداً بحجمه، ثم لحقه شطره الثاني (في الألفة والألاف)، ومن حيث الخط نجد أنَّ العنوان (طوق الحمامة) جاء بخطٍ رفيعٍ بمقاس (٢٢) مغايرا لحجم الشطر الثاني منه، وهذا المظهر للعنوان بشطريه لم يأتي اعتباطا بل جاء عن قصديَّة من المُحقّق[٢] – الذي ينوب عن المؤلف هنا– والناشر وهذه القصديَّة نابعة من العلاقة التعاقديَّة القائمة بينهما ولذا فهي

---

(١) ينظر: مصطفى محمد السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ط١، (بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥م)، ٥١٦.

(٢) هذه النسخة بتحقيق أحمد شمس الدين صدرت عن دار الكتب العلمية.

قصدية مُشترَكة بينهما؛ كان لها أبلغ الأثر في إبراز الفكرة من تأليف الكتاب لكونه يعكس صورة المجتمع الأندلسي.

وهنا يمكن القول أن القصد من وضع العنوان بهذه الصورة وفي هذا المكان نشر مضمون الفكرة بصورة سريعة ومُؤثرة في المُتلقي، وبذلك يلعب العنوان دورا في اغواء القارئ وجذبه واستمالته نحو اقتناء الكتاب وقراءته، مُحققاً بذلك هدفي المؤلِّف والناشر – الجمالي والاشهاري– في آنٍ واحد. فالعنوان – عامَّةً– نابعٌ عن قصديَّةٍ تامَّة وهو تأسيس لعلاقة فعلية بخارجه بمختلف مظاهره الواقعية والاجتماعية، والنفسية والسلوكية، وهو في الآن نفسه تأسيس لعلاقة فعلية أخرى هي علاقته بالمتن الرئيس الذي يأخذ ناصيته أو يتربع على عرشه، أو كما قال دريدا يعلق في سقفه كالثريا، في ضوء مقصدية أساسية هي مقصدية المرسل، الذي يتمثل صورة مثالية لمتلقٍ مثالي، قادر على التفاعل مع مقصديته إلى أبعد الحدود.(١)

وزمانيا يجد المتتبع لـ"طوق الحمامة" أنَّه حظي باهتمام بالغ ولا أدلَّ على ذلك من طبعاته الكثيرة التي بلغت قرابة الأربعين طبعة، وبعد تأمل هذه الطبعات –ولكثرتها– وقع الاختيار على طبعتين: الأولى، طبعة الدار المصرية اللبنانية التي قدم لها الدكتور صلاح فضل وكانت بشرح وتعليق الدكتور آمال إبراهيم وإشراف الدكتور عبدالعزيز نبوي

(١) محمد التونسي، إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته عتبة العنوان أنموذجا، مرجع سابق، ٥١٢.

وجاء اختيار هذه الطبعة لكونها الطبعة الأخيرة لـ" طوق الحمامة" لعام 2021م، في حين وقع الاختيار الثاني على طبعة دار الكتب العلمية التي شرحها وعلق عليها أحمد شمس الدين، وعند تتبع العنوان في أغلب هذه الطبعات وفي هاتين الطبعتين خاصة نجد أنَّه ظهر في أغلبها بهذه الطريقة السالفة الذكر؛ فالتركيز انصب على أسبقية العنوان لاسم المؤلِّف في قضيَّةٍ واضحة من المؤلف – المُحقّق– والنَّاشر للتركيز على المضمون والايحاء الذي يحمله هذا العنوان في محاولة واضحة لإغواء القارئ واستمالته لاقتناء الكتاب وقراءته وقد نجحا في ذلك، وإلى جانب ذلك لعب المظهر العام للغلاف الأمام في التركيز على هذه النقطة فالحمامة التي طالما كانت رسول المحبين، وطالما مثلت الكائن البريء الرقيق الذي غالبا ما تُسقَط عليه مشاعر التعاطف والفهم والتي كانت حاضرة على الدوام في أغلب طبعات كتاب ابن حزم جنبا إلى جنب مع العنوان الرئيس، لتتعاضد مع مضمون العنوان وتُشير إلى معالجة الكتاب لعلائق وصلات قد تكون أبعد وأعم من الحب ودرجاته.(١)

(١) محمد سيد بركة، طوق الحمامة.. لسان الحب في كل العصور، مقال، ٢٠١٤م، صحيفة البيان.

البنية اللغوية للعنوان:

قام العنوان في بنيته اللغوية على عنصرين رئيسين هما (المبتدأ والخبر) فالمبتدأ هو لفظ (طوق) النكرة وقد اكتسب التعريف بالإضافة إلى الاسم المعرفة (الحمامة) وفي هذا تخصيص وتوضيح للطوق، ودلَّت الإضافة على التكثيف الدلالي المقصود بـ (طوق) حتى لا يتشتت ذهن القارئ بعيداً، ويأتي الجزء الثاني الخبر (في الألفة والألاف) وهي صياغة غير مألوفة في العناوين؛ فقد جمع المجرور طرفا الحب (الألفة والألاف) وهذه الصياغة فيها إثارة لذهن القارئ للبحث عن المقصود لغويا ودلاليا، وكيف جمع ابن حزم في العنوان المقدمة والنتيجة وفي استخدام حرف (في) بدلاً من (اللام) في دلالة على العمق المفاد من الظرفية المفهومة من حرف الجر (في).

والعنوان في جملته يمثل دورا رئيسا في التواصل والتوجيه ورسم الخطوط الكبرى لمضمون النص، ووظائفه متعددة تتوزع بين الجمالية والإيضاحية والتداولية، فالأولى تتجلى في النسيج اللغوي البديع والمنفرد فضلا عن الاقتصاد اللغوي، أما الوظيفة الإيضاحية فتتجلى في جلب نظر القارئ وفتح أفق الانتظار والبيان التفصيلي لما أجمله العنوان، وينكشف ذلك بعد قراءته للمتن، أما الوظيفة التداولية فهي التي تجعل من العنوان خطابا أساسيا وأيضا مساعداً، وهو رسالة موجَّهةٌ لجمهور القراء للحفر عن مضمون العنوان وقد تجلى ذلك كله في العنوان محل الدراسة.

المبحث الثاني: العناوين الداخلية وعلاقتها بالعنوان الرئيس:

تأتي العناوين الداخلية امتداداً طبيعيا للعنوان الرئيس وبخاصة في جزئه الثاني (في الألفة والألاف) حيث إنَّ المُحب ينتظر الرسالة التي تحملها الحمامة في طوقها، وهي بمثابة أكسجين الحياة وأداة لاستدامتها وبصيص الأمل للعطاء والإشراق والتواصل الطاهر. ويتضح ذلك من خلال العناوين الداخلية الآتية (التعريض بالقول – المراسلة – السفير – طي السر.. وغيرها) وهذا ما تتضمنه الرسالة المحمولة في طوق الحمامة.

إن البعد الفلسفي الذي يحمله العنوان يكشف عن قراءة ابن حزم النفسية وطبيعة العلاقة النقية بين طرفي الحب، وقد كثَّف دلالات هذا المعنى في أبواب كتابه. ومما يتماثل من العناوين الفرعية مع عنوان الكتاب الذي انتهى به بابي قُبْح المعصية وفضل التعفف؛ فكأنهما منبع الوصال ودليل الوفاق والاستمرارية؛ وفي هذا إجابة عن تساؤلات متزاحمة في ذهن القارئ: كيف يتكلم رجلٌ فيه عن الحُبّ؟

ويلحظ الناظر إلى العناوين الداخلية لكتاب ابن حزم أنه يمكن تقسيمها إلى خمس مجموعات، وذلك على النحو التالي:

ذكر ابن حزم في المجمُوعة الأولى ماهية الحب واشتملت على علامات الحب والحب في النوم والحب بالوصف والحب من نظرة واحدة والحب مع المطاولة، وتشير العناوين الفرعية في المجموعة السابقة إلى تتبع عين المحب لمن أحب حيثما دار وتجوَّل ومنها الإقبال على حديثه والشغف بسماع صوته أو اسمه الذي يصل إلى قلبه قبل سمعه واحساسه بالفرحة والبهجة عند مواجهته خاصة إذا رأه فجأة أو طلع عليه بغتةً ومن دلالاته الوحدة والأنس

بالخلوة والتفرد عن الناس وترك المجال لخياله وفكره ليسبح في عالم المحبوب، وقد فصل ابن حزم هذه المعاني تفصيلا وأشبعها قولا وتمثيلا شعر ونثرا في ترتيب تصاعد بديع يوازي وتيرة درجات الحب ومستوياته، وأنت حينما تقرأ كلام ابن حزم عن علامات الحب فكأنك تراها أمام عينك بين حبيبين تعرفهما أو تسمع عنهما.

ولا عجب في ذلك فإنَّ ابن حزم قد كتب بعد المعايشة وألَّف بعد المُعاناة والتجربة؛ لذا تلمس دلالات الصدق نابعة من بين كلماته، وتمثل هذه المجموعة بدلالاتها أحد المرتكزات للعنوان الرئيس؛ ومن ثمَّ جاءت العناوين الداخلية داعمة – بترتيبها وتناسقها– للعنوان الرئيس وأثراً دلا عليه، فهي – العناوين الداخلية– المفاتيح الداخلية للمتن والعلاقة بينها وبين المتن تختزن الكثير من الدلالات والايحاءات التي تسهم في تعميق معنى النص.(١)

بينما تضم المجموعة الثانية باب التعريض بالقول، والإشارة بالعين، والمراسلة والسفير، وباب السر والإذاعة، والطاعة والمخالفة، وتشير العناوين الفرعية في هذه المجموعة إلى الوصل بين المحبين عن قرب أو عبر رسائل الطوق التي كانت شائعة – آنذاك_ بين العشاق وأداة رئيسة بين العشاق المتباعدين مسافة والقريبين قلبا.

ويلحظ المتأمل لعناوين هذه المجموعة أنَّ التواصل عن قرب يكون عبر قنوات وصل غير مباشرة كالتعريض بالقول أو الإشارة بالعين وهذا فعلهما نافذ وأثرهما ممتد، أما التواصل غير المباشر يكون عبر الرسائل وانظر إلى

---

(١) هناء السادة وأسعد داود، عتبة العنوانات الداخلية (أسماء السور)، العراق، جامعة بابل، مجلية كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٢٠، نيسان ٢٠١٥م، ٢٩٩.

مداد هذه الرسائل فبعضها اصطبغ فيه الحبر بالدم وبعضهم كتب رسائل حبه بدم سال منه وهذا لعمري من دلالات صدق المحبة وأثرها الفاعل في نفس المُحب، كما يتحدث ابن حزم في هذه المجموعة عن الثنائية بين العشاق حيث طي السر وإذاعته والأول محمود والثاني مذموم فكلما كان الصدُّ والمنعُ بدرجةٍ بين المحبين زاد الهيام والعشق، أمَّا إذاعته فهذا دليل على فقدانه وغيابه، ونلمح في الثنائية الأخيرة (الطاعة والمخالفة) أنَّ ابن حزم يمدح الطاعة في الوصلِ حيث أثرها الفعال في قلب المحب، أمَّا المخالفة فتعني الصورة السوداوية القاتمة التي تقتل الحب وتنهيه.

وتضم المجموعة الثالثة على باب العاذل وباب الرقيب والواشي، وباب الوصل والهجر، ويلحظ القارئ هنا الربط المباشر بين هذه العناوين الفرعية وبين العنوان الرئيس، ففي باب العاذل الذي يصب الويل على المحب ويصفه دائماً بالضعف والخضوع للمحبوب لأنه لا يعرف معاناة المحب وألمه، كما تحدث ابن حزم عن الرقيب ودوره في مراقبة المحبُوب وإنْمَاء المحبَّة ودوام العشق.

وفي باب الواشي يشير ابن حزم عن الدور السوداوي الذي يقوم به الواشي بين المحبين وهي صفة مذمومة لا تثمر ولا تنتج خيرا وقد ذمها الدين الحنيف لما لها من آثار سيئة على الفرد والمجتمع، وكم كان يكره ابن حزم صنيع الواشي بين المحبين لما لاحظ من أثره الفاعل حيث الفقد والفراق وكسر القلوب والهجر والقطيعة.

أمَّا باب الوصل فقد بلغ فيه ابن حزم مبلغاً عظيماً وكشف عن آثاره الإيجابية وحمد الوصل الذي يأتي بعد طول هجر وتأجُّجِ جوىً وتوقد لهيب الشوق وتضرم نار الرجاءِ وعدَّهُ أعلى درجة وأرفع منزلة من المال والجاه

والسلطان، وقد بسط ابن حزم في هذا الباب القول وسرد تجارب عملية عايشها وراءها أمامه، أمَّا الهجر فقد ذمَّه ابن حزم لما فيه من القطيعة بعد طول لقاءٍ ومحبة.

أمَّا المجموعة الرابعة فتضم باب الوفاء والغدر، وباب البين والقنوع والضنى والسلو، ويلحظ المتأمل لهذه المجموعة أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالعنوان الرئيس حيث تلتقي فيها الصفات الممدوحة مع الصفات المذمومة وبضدها تتبن الأشياءُ، فالوفاء صفة محمودةٌ بمراتبها المختلفة، أمَّا الغدر فصفة مذمومة ومكروهة حيث إذاعة السر وانتقاص قدر المحبوب وهذا لعمري قاتل للوصل، ويلزم في الوفاء حفظ العهد ورعاية غيبة المحبوب ونشر خيره وكتمان عيبه، والغدر من ذميم الصفات ومكروه النعوت ومن قبيح الغدر إفشاء أسرار المحبوب.

أما البينُ فمنه المحمود ومنه المذموم فالأول ما كان فيه رجعة والآخر ما كان فيه القطيعة والرحيل وإغلاق باب المحبة، والمحب يتعللُ للنفس بما حصَّلهُ من محبة صادقة وسرعان ما يزوره الأمل وتحسّس الأثر والارتياح إذا رأى محبوبه بعد طول غيبة ومجيئه بعد طول بُعدٍ، أمَّا الضنى والسلو فهو ماء الحياة بين العشاق فالإعراض له أثره في بقاء المحبة حيث يوجد الشَّغف ويُنبت الرجاء ويبقى الأمل في وصل محبوبه يحيطه من كل جوانبه، ويأتي السلوّ بين التطبُّعِ والطبعِ والأول فيه قهرٌ للنفسِ وتصبُّرٌ وجلد لبعد المحبوب، أمَّا الآخر

وتشمل المجموعة الخامسة باب المعصية والتعفف، وهو ما ختم به ابن حزم كتابه على سبيل الاحتراس لمن يظن بابن حزم سوءا ويصفه بأوصافٍ غير حقيقية فلقد قبَّح المعصية ووسم من فقد العفة والطهر بأوصافٍ تليقُ به.

لقد صرَّح ابن حزم في أكثر من موطنٍ أنَّه عاشق صادقٌ أمينٌ يترجم عن حالة العشق والعُشَّاق بعد مُعايشةٍ وتجارب دُون أن يُدنِّس نفسه في رذيلةٍ أو يقع في سوء ولهذا ختمَ كتابه بذم المعصية ونادى بالتعفف واعتبره فضيلة حيث يقوى الانسان على نفسه الشهوانية الأمارة بالسوء فذكر العقاب في الدنيا والآخرة، مستشهدا بآيات من الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، وهذه المجموعة تجيب عن أسئلة مسكوتٍ عنها في العنوان وهي العشقُ مع العفةِ والوصلُ مع الطهر.

إنَّ طوق الحمامة تسجيلٌ حقيقي للأحاسيس المُرهفة وكشف للنواميس النفسية ودليل على الصدق، وقد سجَّل صنوف العاشقين وأحوالهم وألوان الحب ودرجاته ومستوياته، وحكى في علامات الحب وأماراته كلاماً انفرد به، لقد اعتمد ابن حزم في طوق الحمامة المنهجية النفسية التي جاءت بعد استقراء مرئي ومسموع وتتبع دقيق للمجتمع الأندلسي والقرطبي على وجه الخصوص.

إنَّ كتاب طوق الحمامة هو ترجمة صادقة لأحوال العُشَّاق في المُجتمع الأندلسي، وهذا ما انعكس في اختيار ابن حزم لعنوان كتابه "طوق الحمامة" فالاختيار كان دقيقا ومحكما رغم إيجازه، وكاشفا عن خباياه رغم اختصاره، ونلحظ ذلك في الشطر الثاني من العنوان "في الألفة والألاف" واضعا الحدود الفاصلة بين الصعود والهبوط بين الضوء والظلام بين الحياة والموت بين الاستحسان الجسدي والاستطراف البصري والهيام النفسي، ولقد عرض ابن حزم في مواطن كثيرة لعلامات الحب وقوَّته على النفوس فأمرهُ نافذ وملكُهُ قائم وطاعته واجبة وقوله لا يرد، يُحرك الساكن ويحل الشغاف ويقرب الممنُوع، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وتأتي هذه العناوين امتدادا للعنوان الرئيس الذي يشير إلى وظيفة الرسائل بين العشاق وأثرها في إدامة الحب والوصل، ويلحظ المتأمل للعناوين الداخلية في المجمُوعات الخمس السالفة الذكر أنها موزعة على مفردات العنوان وإن حظيت كلمة الطوق على النصيب الأوفى، كما يلحظ أنَّ التدرج في عناوين الكتاب الفرعية ليس اعتباطا وإنما جاء عن قصد وبعد مراجعة، فهذا التدرج يسير بمحاذاة درجات الحب وعلاماته وإشاراته بدأً من النظرة إلى الوصل، فالعنوان أداة سيميائية "فعالة لاستقصاء أنماط متنوعة من عمليات الاتصال والتبليغ".(١)

ويلاحظ القارئ لطوق الحمامة حديث الصدق عن الحب وظروفه وأحواله وعلاماته وإشاراته ولغة الحقيقة الآتية من مجربٍ عاشقٍ صادقٍ، ويكشف العنوان عن مسبِّبات دوام العشق بين المتحابين التي كانت سائدة في المجتمع القرطبي حيث جرت العادة على مراسلة العاشق لمعشوقته أو العكس عبر طوق الحمامة.

ويدل عنوان الكتاب ومحتواه على البعد النفسي المرهف والإدراك لحقائق النفوس وألوان الحب وأدوات استدامته، وقد تمثَّل ذلك انطلاقا من استقراءٍ لواقعٍ مُعاش في البيئة الأندلسية فضلا عن التجربة التي خاضها ابن حزم بنفسه، والكتاب يعدُّ صورة صادقة لمجتمع أندلسي عفيف تتبعه لحظة بلحظة وسجله بصدق ولم يجد من يرد حديثه في زمنه أو بعده. فضلا عن النشئة والبيئة التي تربى فيها ابن حزم (في كنف والدته) غلب عليها حضور المرأة بكثافةٍ من نعومة أضافره وحتى شبابه، مما جعله أقدر – وأصدق– على رسم الصور النفسية الدقيقة للحب العفيف وآثاره الإيجابية، والذي يدل على أن ابن حزم كان صادقا فيما سجله عن نفسه أولا وعن مجتمعه ثانيا.

---

(١) فاخوري عادل، تيارات في السيمياء، لبنان، دار الطليعة، ١٩٩٠م، ٨.

الخـــاتـــمـــة

بعد هذه المعايشة في النص الموازي لكتاب ابن حزم "طوق الحمامة في الألفة والالاف"، تتجلى هذه النتائج:

•كان للعنوان أثر بالغ في إيصال مقصد الكتاب وغايته؛ كما كـــان لـــه أثرا إشهارياً بالغاً في جذب القاري نحو الكتاب واقتنائه.

•أنَّ طوق الحمامة وسيلة ناجعة بين العشاق في المجتمع الأندلسي وأن الكتاب صورة صادقه لمجتمع قرطبة.

•ارتبطت العناوين الفرعية بمجموعاتها الخمـــس بـــالعنوان الـــرئيس ارتباطا وثيقا لفظيا ومعنويا.

•جاء ترتيب العناوين الفرعية بصورة تصاعدية متدرجة توازي وتيرة تصاعد الحب ودرجاته وإشاراته وعلاماته وعواقبه.

•بدأت الثنائية في العناوين الفرعية الموصولة بالكتاب بصورة واضحة، كما دلَّت على المعاني المسكوت عنها من الاحتراس والتكميل.

•ترجم طوق الحمامة الأحاسيس المرهفة والجوانب النفسية التي لا يقدر على تمثيلها إلا من أحب وعاش هذا الجو المُمتع المقتنع بما كتبه وصوَّرهُ ابن حزم.

•بدأت العلامات أو الأيقونات على الغلاف داعمـــة للعنـــوان بأقصـــى صورة ممكنة؛ محققة بجدارة البُعدين الجمالي والتداولي.

•ويبقى كتاب طوق الحمامة مادةً ثريَّةً للدراسين والكشف عن المضامين التي تكاد تلمس رغم البُعد الزماني والمكاني.

- ترجم كتاب "طوق الحمامة" التجارب الذاتية والنفسية.

- كما توصي الدراسة بعمل معجمٍ لُغويٍّ لكتاب "طوق الحمامة" وإحصاء مفردات العشق ومستوياته وإشاراته وعلاماته ودواعيه وأسبابه ونتائجه ومحظوراته.

- كذلك توصي بضرورة دراسة التوازي النصي لكتب ابن حزم الأخرى.

قـــائـــمـــة الـــمـــراجـــع

•أحمد المنادي، النص الموازي (آفاق المعنى خارج الـنص)، جـدة، النادي الأدبي الثقافي، مجلة علامات فـي النقـد، المجلـد ١٦، العـدد ٦١، ٢٠٠٧م.

•إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمـرابطين"، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٩م.

•بسام موسى قطوس، سيمياء العنـوان، ط١، الأردن: عمـان، وزارة الثقافة، ٢٠٠١م.

•ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الإلف والأُلَّاف، آمال إبـراهيم، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٢١م.

•ابن حزم الأندلسي، مختصر طوق الحمامة وظل الغمامة فـي الألفـة والألَّف، تحقيق: عبدالحق التركماني، ط١، لبنان: بيـروت، دار ابـن حـزم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.

•ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألَّاف، تحقيق: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٦٤م.

•جميل حمداوي، السيميوطيقيا والعنونة، الكويت، وزارة الثقافة، مجلـة عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد ٢٥، ١٩٩٧م.

•جيرار جينيت، عتبات، ترجمة: عبدالحق بلعابد، ط١، لبنـان، الـدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م.

•حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٩م.

•خير الدين محمود بن محمد الزركلي الدمشقي، كتاب الأعلام للزركلي، نسخة المكتبة الشاملة.

•دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الجزائر، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٨م.

•رحيم عبدالقادر، وظائف العنوان في شعر مصطفى محمد الغماري، الجزائر، جامعة بسكرة، مجلة أبحاث اللغة والأدب الجزائري، ٢٠٠٨م.

•محمد سيد بركة، طوق الحمامة.. لسان الحب في كل العصور، مقال، ٢٠١٤م، صحيفة البيان (موقع الكتروني).

•شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، بيروت، منشورات مكتبة الأندلس، ١٩٥٦م.

•صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، ط١، لبنان: بيروت، دار الآداب للطباعة والنشر، ١٩٩٥م.

•فاخوري عادل، تيارات في السيمياء، لبنان، دار الطليعة، ١٩٩٠م.

•ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٩٠م، مادة (طَوَقَ).

•مصطفى محمد السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥م.

●محمد التونسي جكيب، إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته عتبة العنوان أنموذجا، فلسطين، جامعة الأقصى، المؤتمر العلمي الدولي الأول بعنوان النص بين التحليل والتأويل والتلقي.

●محمد عويس ومحمود العزب، العنوان في الأدب العربي: النشأة والتطور، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

●محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقيا الاتصال الأدبي، ط١، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

●عبدالله محمد الغذامي، الخطيئة ولتفكير، ط١، المملكة العربية السعودية: جدة، النادي الأدبي الثقافي، ١٩٨٥م.

●هناء السادة وأسعد داود، عتبة العنوانات الداخلية (أسماء السور)، العراق، جامعة بابل، مجلية كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٢٠، نيسان ٢٠١٥م.

●نبيل نصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية، المغرب: الدار البيضاء، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٩٦٩
٢-	Abstract	٩٧٠
٣-	المقدّمة	٩٧١
٤-	المبحث الأول: العنوان الرئيس	٩٧٣
٥-	المبحث الثاني: العناوين الداخلية وعلاقتها بالعنوان الرئيس	٩٨٠
٦-	الخاتمة	٩٨٦
٧-	قائمة المراجع	٩٨٨
٨-	فهرس المحتويات	٩٩١